مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 933 – 942
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

جهود الخلفاء الموحدين في تطوير مجالهم الدفاعي

Les efforts des califes unis dans le développement de leur champ de défense

د/ مصطفى سالم
جامعة باتنة 1
مخبر الجزائر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع
mostapha.salem@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/27 تاريخ القبول: 2021/09/16

الملخص:
عرف المغرب الإسلامي والأندلس منذ العصر الموحدي، تشييد عدد كبير من التحصينات الدفاعية، من أسوار وأبواب وأبراج وقصبات وقلاع وخنادق، وقد عمد الخلفاء الموحدون إلى بنائه نظرا لما كانوا يعرفونه من تهديدات داخلية تتمثل في ثورات القبائل على الحكم، أو أخطار خارجية. إن العدد الهائل من هذه المنشآت الدفاعية التي بناها هؤلاء الخلفاء لكفيلة بإعطائنا فكرة عن تطور هذه العمارة الحربية، من خلال تنوع عناصرها المعمارية ومواد بنائها وتقنياته، على اعتبار أن هذه العمارة أحد أشكال هيبتها وسطوتها، أو دليل على موقعها في مسار التاريخ، أو تأثيرها في التراث الإنساني.
الكمات المفتاحية: الخلفاء الموحدين؛ التحصينات؛ الأسوار؛ العمارة الحربية.

Résume :
Le Maghreb islamique et l'Andalousie ont connu depuis l'ère des Almohades unifiée, la construction d'un grand nombre de fortifications défensives, de murailles, de portails, de tours, de forteresses et de fossés. Les successeurs des Almohades ont eu recours à ces constructions défensives à cause des menaces internes, en l'occurrence des révoltes tribales contre le pouvoir, et des dangers extérieurs. Le nombre considérable de ces réalisations défensives, construites par les Almohades est susceptible de nous donner une idée sur l'architecture de guerre, à travers la variété de ses éléments architecturaux des matériaux de construction et leurs techniques. Que cette forme architecturale sujette d'un prestige et d'influence ou la preuve de sa position au cours de l'histoire et son impacte dans le patrimoine de l'humanité.

مقدمـة:

لقد كان الأساس لدى الموحدين في تشييد الحصون ورفع الأسوار ونصب الأبراج وإحكام الأبواب وبناء القلاع، والثغور المحصنة على جهة البر والبحر، أمر بالغ الأهمية، وإنتاج تلك المنشآت الدفاعية. قام لضرورة وبدعم مورث حضاري، ساهمت فيه كل الظروف الاجتماعية والسياسية والجغرافية لكي يوجد، ويعكس لنا الفكر الموحدي العسكري. من خلال تلك العمارة التي قدمت لنا هوية مستقلة متميزة وانطلاقاً من هذا الكلام، يمكننا طرح الإشكالية التالية: ماهية الاستراتيجية التي اتبعها الخلفاء الموحدون في تطوير مجالهم الدفاعي؟

عمـارة الموحديـن الحربيـة في نطاق فلسفتهـم الجهادية:

تعتبر الدولة الموحدية[1] دولة عسكرية بامتياز، حيث أولت جل اهتمامها لقضايا – الجهاد- داخليا وخارجيا، وإذا علمنا مدى شساعة المجال كان على الدولة الموحدية أن تراقبه وتدافع عنه ضد المنافقين والخصوم، أدركنا ولا شك أهمية القوة العسكرية الواجب توفرها[2].

فالملك عند ابن خلدون، يبنى على أساسين لا بد منهما، الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند وثانيهما، المال الذي هو توأم أولئك الجند، ولعل ما كان يزيد من حضور الحرب في الحياة اليومية للراعي والرعية على حد سواء، اعتبار الموحدين أنفسهم أصحاب العقيدة الصحيحة أما غيرهم فليسوا في نظرهم، سوى مجسمة كفار تجب محاربتهم وقتالهم لردعهم وردهم إلى جادة الصواب[3]، وليس غريبا أن نأخذ كل حروب الموحدين طابعا جهادياً فإمامهم ومنظرهم محمد بن تومرت خصص ضمن كتابه أعز ما يطلب بابا كاملا في الجهاد وما يرتبط به من قضايا وما يترتب عنه من مشاكل. فلقد تمكن ابن تومرت بواسطة الأطر القيادية التي وضعها من فرض نظام اعتمد فيه الصرامة تارة والوعظ أو الإغراء بالغنائم تارة أخرى، لقد جعلت مبادي ابن تومرت من الموحدين، بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق، ويكافحون الكفر طوغيته، وأن معتقداتهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم وأن الموت في سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة، فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان هما:

الروح المعنوية العالية ، والدافع المادي، فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعدائهم ونشرون مبادئهم ، وفق الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين ، وقد ساعدته وعورة أرضه، على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة، كما الجيوش المهاجمة عادة، تحتاج لوقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة بينما كان ابن تومرت واتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والاهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت، كانوا يقاتلون بمعنويات عالية، بعد أن بايعوا ابن تومرت على المهدي[4].

هذا وقد تركزت استراتيجية ابن تومرت على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام حرب العصابات، وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة.

كما تمكن من فرض تقليد جديد يتمثل في إقامة استعراضات عسكرية يجبر من خلالها أهالي الأطلس المعروفين بعدم انضباطهم على الخضوع لعملية تمييز دورية، الغاية منها معرفة درجة انضباط القوات المتوفرة، وقد اتبع الخلفاء الموحدين من بعده هذه الأطر في تسيير شؤونهم خاصة منها العسكرية[5].

ويبدو هذا الاهتمام المتزايد بالحروب وأمور الجهاد في النقوش التي زخرف بها الموحدون بعض بناياتهم، فقد دونوا على باب القصبة الشرقية للرباط. الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11)﴾ (الصف: 10-11)، كما نقشوا على احدى نوافذ صومعة حسان المطلة على البحر، بسيفين متجهين نحو السماء[6] اعتماداً على هذه الأمثلة وغيرها والتي تبين كلها ارتقاء الحرب لدى الموحدين إلى مستوى العقيدة كان لابد وإن يطغى الميدان العسكري على بقية الميادين، وأن تتربع المؤسسة العسكرية على قمة الهرم الاجتماعي بل أن المغرب الإسلامي حسب رأي أحد الباحثين الأجانب[7]، لم يعرف بعد الموحدين تلك القوة العسكرية، وذلك التصميم الحربي اللذين كانتا سمتين بارزتين من سمات العصر الموحدي.

إن خطورة الحرب على الدولة الموحدية أصبح من الأمور التي لا يرقى إليها الشك، فيكفي أن نشير إلى أن أغلب المؤرخين يقرنون بداية الدول ونهايتها بحدث عسكري، فنهاية المرابطين بدأت في الأفق بعد مقتل الأمير تاشفين بن علي على يد القوات الموحدية بمدينة وهران[8] أو إلى تأسيس مدينة عسكرية كما حدث في تينمل مهد الموحدين إن إعادة التفكير في إشكالية الحرب والمنشآت العسكرية خلال عهد الموحدين بمنظور جديد يتجاوز السرد الكرونولوجي للأحداث العسكرية، إلى الحفر في نتائجها المعمارية، لكفيلة بالكشف عن معطيات جديدة ستغنى البحث الأثري ولا شك، وإذا كنا نجهل عدد المنشآت العسكرية التي اقيمت في المغرب الأقصى خاصة والأقاليم الواقعة تحت سلطة الموحدين عامة بسبب ندرة الإحصائيات والأرقام في الحوليات الوسيطية على العمران العسكري خصوصاً في هذه الفترة محل دراستنا.

وذلك راجع إلى عدة عوامل، فالبرغم من تعرض الميدان العمراني للكثير من الضرر الناتج عن عمليات الهدم والتخريب، فهذا عبد المؤمن بن علي نجده يلجأ إلى تطبيق سياسته هدم الأسوار المحيطة بالمدن المفتوحة مبرراً بذلك قوله الذي عدا مشهوراً، أننا لا نحتاج إلى سور، وإنما أسوارنا عدلنا وسيوفنا[9]حيث تم تهديم أسوار مدن فاس، وسلا وسبة، وهو ما أورده الشريف الإدريسي، وهو أحد معاصريهم، حينما ذكر أن المصامدة هدموا إلى حد الاندراس والمحو مدينتين كانتا تقعان إلى الشمال من فاس، وهما صالح وبني تاودا[10]، لكن عمليات الهدم التي كانت تلحق بالمآثر العمرانية المرابطية خاصة هي التي تفسر أعمال البناء والتشييد خلال فترة الموحدين، هذا فضلاً إلى الاضطرابات السياسية وما تمخض عنها من حروب وتطاحنات من العوامل التي ساعدت الاهتمام بالمنشآت العسكرية.

ومهما كان فإن أسلوب الإنتاج الحربي، كان هو الأسلوب المهيمن على المجتمع الموحدي، وذلك من أجل خدمة السياسة الحربية والمذهبية للدولة.

-تأسيساً على ما سبق، يبقى مطروحا على البحث الأثري في هذه الفترة المراد دراستها، تركيز الاهتمام على لم شتات الحلقة المفقودة من آثار المنشآت العسكرية خاصة في عاصمة ملكهم، حيث تبقى هذه الحلقة من أهم الحلقات التي يجب دراستها وإحياءها، ذلك أن بوسعها أن تفسر العديد من النقاط الغامضة، التي تلف تلك المنشآت خلال تلك الحقبة والحقب التي تليها.

هذه المنشآت التي قامت بدور رئيسي في تمكين دولتهم المترامية الأطراف، سواء في مرحلة التكوين والتأسيس أو مرحلة القوة والازدهار، أو حتى مرحلة السقوط التي أصبحت العمارة الحربية إطارا ضروريا لمختلف الأنشطة العمرانية والبشرية والاقتصادية.

من المتعارف عليه أن مسألة الدفاع شكلت منذ القدم هاجسا لدى الإنسان حيث ظهر مفهوم التحصينات الدفاعية منذ انشغاله بالاستقرار واستشعاره بضرورة وضع حد للهجمات والاعتداءات، فلم يتوان في البحث عن أساليب مختلفة تقيه الخطر المحدق، فانتقل من تحصينات بسيطة، ببساطة فكره إلى اعتماد الصخور والأشجار، والانتقال في مراحل تاريخية لاحقة إلى اعتماد طرق ومناهج تتخذ من الهندسة والعلوم المصاحبة سنداً في تطوير استحكاماته الدفاعية بنوعيها الخفيفة الوقتية أو القوية الدائمة[11] والتي كان الغرض الأصلي منها هو تقوية مواقع الدولة.

كالمعابر والثغور البحرية، والتي يلزم لأجل الوثوق بتملك هذه المواضع المهمة والاستمرار على الاستحواذ عليها أن يشيدوا بها في مبدأ الأمر حصوناً حصينة تكون فيها قابلية لمقاومة كل التأثيرات الطبيعية المخربة، وجميع المجهودات الناشئة عن هجوم منتظم[12]، إن خاصية الاستحكامات القوية هي دلالتها على درجة محققة من القوة تكون معلومة من قبل وهذه الدرجة تتحصل باستعمال الوسايط المعلومة الجيدة لأجل

الوصول إلى الغرضين المذكورين أنفا بشرط أن يستغرق في إنشاء هذه الاستحكامات ما يلزم لها من المدة ويصرف عليها ما تحتاج إليه من النقود[13].

1- تطور المجال الدفاعي للدولة الموحدية

إن التطور الذي عرفته الدولة الموحدية في مجال التحصينات واختيار مواقع بنائها اختلف بحسب المراحل التاريخية، ومدى حاجة الدولة للدفاع عن وحدتها المترامية الأطراف، والتي ضمت بين جناحيها أمم إفريقية والمغرب الأوسط والأندلس، وبنظرة تأملية في هذه التحصينات يمكن الاطلاع على ذلك التطور سواء من خلال اختيار المكان[14]. أو الجانب الهندسي والمعماري وطبيعة مواد البناء فيها[15]. وهو ما سنلاحظه عند ابن تومرت عند اختياره لمدينة تينمل- كعاصمة سياسية وعسكرية في نفس الوقت، وهو ما ينم عن استراتيجية الدفاع المحصن الطبيعي[16]، وإشرافها على عدة طرق هامة مؤدية إلى بلاد المغرب، فهي تقع في طريق تارودنت- إلى مدينة اغمات وريكة من جهة، واستجابة للمفهوم العام لاختيار الموقع الطوبوغرافي في علاقته بالمجال الدفاعي العسكري من جهة أخرى.

وتعتبر تينمل مهد الدولة الموحدية ففيها نشأة دعوة ابن تومرت واشتد ساعدها، ومنها خرجت جيوشها للحرب والقتال، وبهذه الاستراتيجية العسكرية التي جاء بها ابن تومرت، ستخضع للعناصر المرتبطة بتحقيق شرط الدفاع، وتأمين الموقع، واختيار المجال بناء على دفع المضار وجلب المنافع، وتسهيل المرافق حسب ما حدده ابن خلدون في إطار حديثه عن جغرافية المدن[17].

نستطيع القول أن الموحدين تفوقوا على المرابطين في فنون الدفاع، وهم في بداية ثورتهم، حيث احسنوا اختيار الموقع، فاتخاذهم جبل درن موطنا لثورتهم نظرا لحصانته، ثم بعد ذلك المدينة سوروها وحفروا حولها خندقاً وتشييدهم برجا للمراقبة.

وقد لازمتهم هذه الميزة الدفاعية، عندما تحولوا من الدفاع إلى الهجوم[18] فنجد رباط تازة[19]، الذي كان المعبر الأساسي بين الجانبين الشرقي والغربي للمغرب الأقصى، ثم بعد ذلك بناءهم رباط تيط، وذلك من أجل القضاء على بقايا البرغواطيين في تامسنا من جهة ووقوعه على ملتقى الطرق وخصوبة تربته من جهة أخرى[20].

لقد كان الهدف من خطتهم هذه حراسة محاور الطرق الاستراتيجية ومراقبة القبائل وتدعيم سيطرتهم عليها والحد من تحركاتها وقد سار الخلفاء الموحدين على هذا النهج، فقد شيدوا سلسلة من الحصون والقلاع والقصبات وحرصوا على تثبيت سيادتهم بالارتكاز على تنظيم عسكري محكم باعتبار أن أساس الدولة هو التنظيم العسكري السليم، وهنا يجدر بنا الوقوف على ظاهرة ابتكار المربع القتالي[21] لعبد المؤمن بن علي، صاحب هذه الفكرة، التي لم يقتصر على السكة الفضية فحسب، بل تجاوزتها إلى مجالات التحصينات، خاصة الأبراج البرانية، ذات الشكل المربع، فأغلبية الأبراج المحيطة بالأبواب ذات تخطيط مربع ويرجع ذلك إلى سهولة بنائها ومتانتها من جهة أخرى.

كما أتقن الموحدون الأبراج المتحركة التي لها في أغلب الأحيان، أربعة أدوار أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا البرج على عجلات، تصعد على طبقاته الجنود لنقب الحصون وتسلق الأسوار[22].

هذا وكان ابرز ما يعرف به الموحدون التكثير من اتخاذ الطبول لاستعمالها للإيذان بنشوب الحرب إلى جانب الأفراح والمسرات وقد اتخذت الطبول مختلف الأحجام والأشكال، وقد غلب عليها المربع الذي يرجع إلى عهد ابن تومرت هذا بالإضافة إلى المستدير الكبير[23].

كما لازم الموحدون العدد أربعة في اتخاذهم الأعلام والروايات الملونة بالأحمر والأبيض والأصفر والأخضر، وكان لهذه الرايات قصد بها ارهاب العدو وتثبت نفوس المقاتلين، كما أن الاستراتيجية العسكرية لعلم الوحدة -الأبيض- يهدي المقاتل متى يثبت ومتى يقدم ومتى يتراجع[24].

الواقع أن عبد المؤمن بن علي عمد على نهج سياسة دفاعية عبرت عن حسن استراتيجي ذو وعي دفاعي، خاصة بعد الاستقرار الذي شهدته دولته سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فاتساع جغرافية إمبراطورتيه بمشروعيتها الدينية أو السياسية، حيث توحد المغرب الإسلامي في عهده من برقة وطرابلس إلى المحيط الأطلسي، كما استقرت الأوضاع بالأندلس، وهذا طبعا بفضل جيش قوي محكم التنظيم، وهنا تتراءى لنا عبقرية وفكر عبد المؤمن في هذه النقطة، فقد رأى الإمبراطورية تحتاج إلى أساس معنوي غير القهر أو العصبية للحكم واستقراره، وأن هذه الدولة مهما كانت قوتها، لا بد لها من طاقات بشرية من الجنود والحاميات لأنه حين ينفذ هذا العدد تتوقف الدولة على التوسع، فانتهج سياسية الحلم اتجاه العرب، وحاول أن يجعلهم أكثر ارتباطاً بشخصه[25]، كما اعتمد على قبيلة كومية، ومنه نجد أن هذا الاتساع والتنوع في البيئات في نطاق الإمبراطورية، كان له دور في حركة العمران وانتظام عجلة الحياة وتطورها وانتعاشها، كما كان له الدور في الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر.

يحسن بنا القول أن عبد المؤمن بن علي، لم يكن مؤسسا لدولة عسكرية وسياسية عظيمة، بل كان أيضا مبدعاً وموحيا لطراز معماري فريد من نوعه تجلى في ضخامة عمارته العسكرية خاصة، وإلى حسن اختيار الموضع والموقع على حد سوى لهذه المنشآت[26].

فبعد مسح جميع أراضي الدولة والذي كانت له أبعاد سياسية واقتصادية وحضارية، فهو بذلك حصل من الولاة على بيانات دقيقة على سكان كل ولاية وعن خواصها وثرواتها وعلاقتها حيث قدر الجانب الجبائي لها[27]، كما أمر بإمداد مملكته بالجيش وسفن ويؤتى بها من افريقية والمغرب الأوسط والأندلس، أما الفرسان والخيول والدواب الحمل من المناطق الصحراوية، أما المناطق الأخرى فتقدم الجند، هذا من جهة من أخرى فهو عمد في بناء الثغور والرباطات على حسب موضع كل منطقة، وهي عبارة على حصون وأبراج تبنى على حدود الإمبراطورية، وذلك إما لدفع العدو، وصد هجماته، أو لاتخاذها قاعدة انطلاق لمهاجمة العدو. هذا بالإضافة إلى إقامة قواعد التموين الهائلة التي تعتبر المحرك الأساسي للتوسع ومواصلة الفتوحات، دون توقف[28].

ولدينا أمثلة نسوقها من خلال الكلام الأنف ذكره فنجد عبد المؤمن بن علي يأمر بناء جبل الفتح وتحصينه، وقد ارتبط هذا الجبل في الفترة الموحدية باسم جبل فتح تيمنا باستئناف عملية الفتوح الموحدية في اتجاه الأندلس، ويلاحظ أن الموحدين بخلاف المرابطين الذين ركزوا على جزيرة الأندلس مباشرة كانوا يرغبون من خلال اختيار موقع جبل ذارق أن تكون المدينة منفصلة عن الأندلس، لتمكن قادة الجيش بوضع خططهم العسكرية قبل الإقدام على أي مغامرة في الداخل، وبغض النظر عن التضارب الكبير في مسألة بناء هذه القاعدة وحول الخليفة الذي تولى بناءها، فإن الرواية الأقرب إلى الأخذ هي رواية ابن صاحب الصلاة الذي كان معاصرا للأحداث، والتي زكت صحتها الرسالة التي أرسلها عبد المؤمن قبل جوازه، والتي تفيد أن البناء كان قبل الجواز أي سنة 555هـ/1160م[29]، لقد أدرك الموحدون مدى الخطر الذي يتهدد الأندلس وبلاد المغرب من الجهة الغربية، حيث كان يرابط فيه الأسطول البرتغالي ، فارتأوا أي يتخذوا من إشبيلية عاصمة لهم في الأندلس عوض قرطبة عاصمة المرابطين من قبل، ولهذا نجد أن الموحدين لم يقتصروا على القواعد القديمة، وإنما سعوا إلى تنويع محطات نزولهم بين العدوتين، وكان

الغرض منه جعله مركزاً للعبور ومنزلاً للجيوش الموحدية المتجهة إلى عدوة الأندلس هذا بالإضافة إلى جعله قاعدة أمامية للدفاع عن بلاد المغرب، وهنا يخبرنا ابن صاحب الصلاة عن الاجتماع التمهيدي الذي ضم عدداً مهماً من المهندسين والعرفاء كأبو إسحاق براز والمهندس الحاج يعيش.. والعريف بن باسة، وحضر جميع الذين تمس حاجة البناء إليهم من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء إلى جانب القواد والكتاب وأهل الحساب الذين يشرفون على تقييد الأشغال والإنفاق على الأعمال[30]. وهذا إن دلّ عن شيء إنما يدل على حسن استراتيجي وتطلع مستقبلي لهذا الخليفة المحنك الذي انتخب الوظيفة الحربية، وفق موضعها الجيد، الذي يحقق شرط التكتيك، فهو يجمع بين خط الدفاع والهجوم الأمامي وضمان الارتداد والحماية، أي خط خلفي.

وقد طبقت هذه الاستراتيجية العسكرية على المدن الساحلية كتلمسان وبجاية وتونس وغيرها فهي تعتبر الخط الدفاعي الأول عن أراضي البابسة.

الواضح أن الموحدين قد حققوا ثورة معمارية مست الجانب الدفاعي، إذ اعتبرت أرقى ما وصل إليه الفكر العسكري خلال هذا العهد.

فقد تجاوزوا المعضلات الهندسية يوضح مخططات ورسوم وزخارف تدل على مستوى عال من المعرفة بالعلوم الرياضية والهندسية[31] كهندسة الري التي بلغت الذروة من الازدهار وخصوصا السواقي وجلب المياه وإقامة الجسور والقناطر للربط ما بين ضفاف الأنهار وماله من أهمية ودور خاصة في حصار المدن أو الدفاع عنها في حالة الحروب، وأحياناً كثيرة تعطي الأولوية لبناء القناطر قبل الأسوار، فهذا المنصور يؤسس القناطر في مختلف أرجاء دولة الشاسعة وبنائه للملاجئ من منطقة سوس إلى بني مدكود، بطرابلس، كما تذكر عنه المصادر والمراجع الأثرية خصوصاً[32]. وكان اقتباسهم من الأساليب الأندلسية، لاسيما في بناء السواقي وجلب المياه، ووضع القنوات من أجل نقل المياه إلى مدنهم مثل: سلا- رباط الفتح- وغيرها من المدن الموحدية[33].

وقد شكلت تلك المنشآت الدفاعية حزاماً أمنيا ضد أي تدخل خارجي أو قبلي لنيل من سلطتهم، وبذلك لجأ الموحدون إلى تحديد تقنيات التصميمات، كما هو الأمر في الأبراج ذات التصميم المتعدد الزوايا، وسيادة الحصون ذات التصميم الرباعي أو شبه مستطيل، كما استعملوا البرج المسمى على نحو منتظم في بناء أبراجهم البرانية وهو ما يعرف بالأبراج الخارجية عن نطاق السور[34].

كما تميزت هندسة أبواب الموحدين بالضخامة التي تعكس الثراء المتنوع من حيث التخطيط والدلالة على عظمة ورهبة هذه الخلافة، خاصة إذا لاحظنا التعقيد الذي أسس نظام الأبواب ذات المرافق حيث أنشأوا أبواباً مرافقها مزدوجة، وأخرى بثلاثة مرافق[35]، كما أنهم لم يسقفوا الممرات حتى تتاح الفرصة للجند بالإشراف من عال على المهاجمين وقذفه بالنبال والزيت المغلي كل هذا يبرز بجلاء شخصية وعبقرية المهندس والبناء المغربي في هذه الفترة والتي يعدها.

هذا ونجد أن الفنان المعماري الموحدي قد طور مواد البناء وطرقه التي استعملت من أجل إنشائها فنجد طريقة الطابية، وقد استخدمت بشكل فعال جدا في الأسوار الموحدية التي مازالت توجد أجزاء منها ماثلة بفاس القديم، والطابية هي عبارة عن خليط من التراب والحصى والجير والماء يحضر بنسب متفاوتة على حسب درجة صلابة البناء المنشودة، فكلما كانت نسبة الجير أكبر كلما كان البناء صلبا، ولكن في الوقت نفسه كان المعماري الموحدي يراعي نسب المواد الأخرى حتى لا تقع شقوق في الأسوار فيما بعد، ويتم بناء هذا النوع من الأسوار عن طريق ما يعرف بوحدات البناء وهي طريقة تعتمد على الارتفاع بالسور

رويدا رويدا من خلال قوالب خشبية وهذه التقنية جاءت لتعويض الحجر بالنسبة للتحصينات العسكرية والتي أثبتت فعاليتها وجودتها منذئذ الصلابة في البناء والسرعة في التنفيذ[36].

إن هاجس الأمن والبحث عن الاستقرار وإخضاع المجال الطبيعي والبشري، دفع بحكام الخلافة إلى خلق أنظمة دفاعية في المدن والأرياف فبنوا الحصون والقلاع والقصبات والأسوار وما إلى ذلك من تلك الأنظمة التي ابدع فيها الفنان المغربي الذي أثبت عبقريته في تلك الأشكال الهندسية المتبعة في العمارة الحربية إلى جانب تطويره في طبيعة مواد البناء وطرقه[37].

إن تلك المنشآت المعمارية الحربية المنتشرة والمتوزعة عبر أقاليم هذه الإمبراطورية توضح لنا الإمكانيات التي كانت تتوفر عليها الخلافة الموحدية وتوظيفها في المجال العسكري والبناء الذي كان جزءا أساسيا من البيئة السكنية والمعمارية والحربية.

خاتمة:

إن حركة بناء المنشآت الدفاعية التي اتبعها الخلفاء الموحدون، كانت تتبع بالضرورة إلى اتساع نفوذهم، فما كان يستقر بال هؤلاء الخلفاء حتى يحيطوا قصورهم وقصباتهم ومدنهم بأسوار عالية محصنة بأبواب، وأبراج منيعة، ثم يأمرون ببناء المدن الجديدة، حتى يحرصوا على صلابة أسوارها وقوتها من جهة من والدفاع عن أقاليمها من جهة أخرى.

ومن البديهي القول إن انتشار هذا البناء وتقنية عالية قدا أدى إلى صمود العديد من المعالم في وجه التطورات الطبيعة والشرية، وما بعض الحصون والأسوار والقصبات التي ماتزال قائمة إلى الأن الدليل على ذلك، والتي من شأنها أن تساهل في إنارة الكثير من لقضايا الخاصة بالفكر العسكري لخلفاء الدولة الموحدية، الذين كان لهم دور كبير في تطوير مجالهم الدفاعي وبالتالي قراءة توظيفية لتلك العمارة ومحاولة فهم أدوارها، ووظائفها وذلك من خلال ربطها بمجموعة من المعطيات الاقتصادية والبشرية والسياسية والعسكرية.

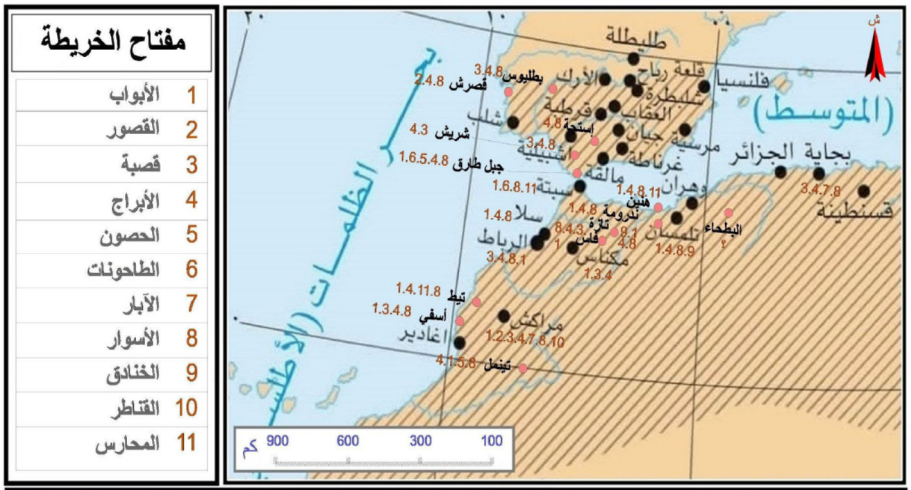

خريطة تبين توزيع الإستحكامات العسكرية الموحدية في بلاد المغرب والاندلس (من إعداد الباحث)

الهوامش:

(1) نشأة حركة الموحدين في جنوب المغرب الأقصى، سنة 515ه 1121م، وكانت الحركة أساسا لقيام أقوى دولة عرفها المغرب في القرون الوسطى، لإخضاع الموحدين جميع بلاد المغرب وجزء من بلاد الأندلس، وحكمت دولتهم من 541ه/1146م، سقوط مراكش حاضرة المرابطين في أيديهم_ إلى سنة 668ه-1269م وفرضوا على سكان المغرب والأندلس الاعتراف بنظرية محمد بن تومرت فترة تزيد عن القرن: لمزيد من الاطلاع بنظر: روجر لي تورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب أمين الطيب، ط2، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء 1998م.

(2) أبي بكر بن علي البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص35-37-38-51.

(3) المصدر نفسه، ص 51.

(4) البيدق، المصدر السابق، ص ص 35-38.

(5) لمزيد من الاطلاع ينظر: محمد ابن تومرت، أعز ما يطلب، تقديم تحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة النشر، الرباط، المغرب، 1997، ص 413-473.

(6) لقد رمز الموحدون لعلو همتهم في الجهاد برمزين ناطق وصامت فالناطق يتمثل في الآيات التي كتبوها على باب القصبة الشرقي بالرباط، والصمات هو نقش حول احدى نوافذ صومعة حسان جهة البحر، وهما يعبران عن إرهاب العدو المهاجم من البحر، ورمز إلى التهيؤ له والاستعداد. لمزيد من الاطلاع ينظر: مصطفى سالم، الاستحكامات العسكرية الموحدية في بلاد المغرب والأندلس - دراسة تاريخية أثرية- رسالة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله ، معهد الآثار، السنة الجامعية 2017-2018 ، ص ص 75-78.

(7) Montagne (R) les berbères et le MAZERR, Dans le sud du MAROC Casablanca, 1989, P61.

(8) ابن عذارى المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، الطبعة الأولى، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني، محمد تاوبيت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ - 1985، ص20-21.

- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1978، ص202-203.

(9) الجزنائي أبو الحسن علي، كتاب جني زهر الآس في بناء مدينة فاس تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1995، ص210-215.

- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972، ص189.

- ابن القاضي أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، المطبعة الحجرية الفاسية، 1309، ص34.

(10) الادريسي أبو عبد الله الشريف: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، تحقيق دوزي، مطبعة ليدن، 1862، ص101-102.

- أنظر كذلك مقال: السيني عبد الأحد علامات المدينة المغربية في الأدب الجغرافي الوسيط، دلالات الخراب، ضمن كتاب التاريخ واللسانيات، منشورات كلية الآداب، الرباط، العدد 90، 1992، ص11-25.

(11) هي مجموعة من المنشآت والموانع والستائر تقام لتقوية موقع ما وحمايته من الهجمات، وهناك نوعان من التحصينات، الدائمة أو الثابتة وغالباً ما تبنى في وقت السلم، وتتمثل في الأسوار والمداخل والأبراج والمزاغل، بالإضافة إلى القصبات والقلاع والممرات الخارجية والخنادق، أما التحصينات الميدانية فتقام إثناء المعركة.

- الهيثم مقدم الأيوبي: موضوع التحصينات الموسوعة العسكرية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ج1، بيروت 1977، ص257-258.

(12) المطالب المنفية في الاستحكامات الخفيفة، ترجمة من الفرنسية إلى اللغة العربية، راجي توفيق السيد صالح مجدي، المطبعة العامرة، القاهرة 1278هـ، ص7-8.

(13) المرجع نفسه، ص07.

(14) يجب أن تراعى شروط في اختيار المكان لإقامة المدن والتي من بينها أن تكون على هضبة متوعرة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر حتى لا يصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة لمزيد من الاطلاع حول هذه الشروط: ينظر:

- ابن الأزرق أبو عبد الله، بدائع السلك في طبائع الملك تحقيق: محمد عبد الكريم، ج2، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1977، ص 764-766

- عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 01، دار الفكر، بيروت، 1988، ص405

(15) El omariRochid :Architecture militaire de sale propositions des Resauroion on INSAP Rabat, 1995, PP82-85.

- بوجبار نعيمة الخطيب: المدن الأثرية القديمة مطبعة فضالة الجديدة. المحمدية الدار البيضاء، 1977، ص59-60.

(16) وقع اختلاف كبير في رسم ونطق لفظ تينمل – حيث كتبت في المصادر التاريخية الجغرافية بأشكال مختلفة منها: تينمال في الحلل الموشية، ص 112. وتينمل في كتاب أخبار المهدي ص 34، وتانملت عند الادريسي، ص 64، وتامللت في كتاب الروض المعطار ص 128. وتينمل في نظم الجمان، ص 224. وقد رسمها أحيانا ابن صاحب الصلاة كلمتين – تين – ملل- وهي تعني بالبربرية ذات الحواجز تقع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى، ينظر: مصطفى سالم ، المرجع السابق، ص 87.

(17) عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص405-406.

(18) ففي هجومهم الأول على مراكش سنة 524هـ، بنوا سوراً حول معسكرهم وفي فاس عملوا سوراً وحفروا خندقاً حول محلة خليفتهم وكذا فعلوا في مكناسة والمرية والمهدية، لمزيد من الاطلاع حول فنون الحصار والتحصين المؤقت: ينظر:

- ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي دار الغرب الإسلامي 1990، ص88.

- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر ومامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979، ص136.

(19) كانت في الأصل "تيزي" بكسر التاء وتشديد الزاي ومعناها البربري "الثنية" أي العقبة ويؤدي هذا أن كلمن صعد إلى مكان مرتفع تظهر له هذه الثنايا من كل الجهات وهناك ثناي تطل على مكناسة الشرقية وثنايا تطل على ملوية وثنايا مكناسة الغربية أنظر: عبد الهادي التازي، رسائل مخزنية، مطبعة فضالة المحمدية 1985، ص 12-13.

(20) عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، ملحق 2، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، ص159.

(21) ينسب المؤرخون إلى عبد المؤمن بن علي، اختراع تشكيلة المربع التي اتخذت من ذلك الوقت أساسا لخطط الدفاع الموحدية، فيذكر لنا صاحب الحلل الموسية حيث يقول: «... لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زنانة... فصنعنا دارة مربعة في البسيط جعلنا فيها من جهاتها الأربع، صفاً من الرجال بأيديهم القنا الطوال، والطوارق المانعة، ووراءهم أصحاب الدرق والحراب صفا ثانيا من ورائهم ووراءهم أصحاب المخالي فيها الحجارة ووراءهم الرماة بقوس الرجل، وفي وسط المربعة الخيل، فكانت خيل المرابطين إذا دفعت اليهم لا تجد إلاّ الرماح الطوال الشارعة... فحينما تولى من الدفع وتدبر تخرج خيل الموحدين من طرق تركوها... فتصيب من أصابت... وكان هذا اليوم يعرف بيوم منداس، فقد فيه من جيوش المرابطين مالا يحصى وفي ذلك اليوم ظهر أمر عبد المؤمن بن علي...»، ص132.

(22) إضافة إلى هذه الأبراج المتحركة نجد أن الموحدين قد تفننوا في استعمال سلم الحصار الذي يساعد الجنود على اعتلاء الأسوار وفتح مغاليق الحصون، وقد وصف لنا صاحب الحلل الموشية حصار الموحدين لمدينة مراكش واعتلاء أسوارها بالسلالم، حيث أمر عبد المؤمن بعمل السلالم لارتقاء السور، ثم قسمها على القبائل فدخلت هنتاتة من جهة باب دكالة، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين ودخلت هسكورة وغيرها من جهة باب أغمات، ص138.

(23) قد تنوعت الطبول وتعددت ففي حالة الاستقبال يضرب طبل مربع يرجع إلى عهد ابن تومرت بينما في الرحيل يضرب طبل كير مستدير الشكل دوره خمسة عشر ذراعاً منشأ من خشب أخضر اللون مذهب وفي حالة تعيين والي تضرب أربعة طبول.

- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين، تحقيق عبدة الهادي التازي، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1987، ص320.

(24) قد اهتم الموحدون بالبنود والرايات لدرجة أنه كان لهذه الدولة رايات متعددة، حتى أنهم كانوا ينصبون راية على رأس كل مائة جندي، وقد اتخذ ابن تومرت لواء أبيض يكون رمزا لجيشه كتب على أحد وجهيه- الواحد الله محمد رسول الله المهدي خليفة الله، وكتب على الوجه الآخر وما من إله إلا الله وما توفيقي إلاّ بالله، وأفوض أمري إلى الله

- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، 1972، ص ص 201 -202.

(25) لقد برهن عبد المؤمن بن علي على معرفة تامة بنفسية البدو فقد خاطبهم شعراً، إلى جانب تذكيرهم بحقوق الجهاد في سبيل الله ركز على ما سينالونه من غنائم ومكاسب مادية وقد استجاب لنداء عبد المؤمن الجم الغفير من العرب، ففي عام جبل الفتح رتب بعضهم في نواحي قرطبة واشبيلية، ونقل أعدادا إلى المغرب وفي استعداده لغزو النصارى نقل إلى المغرب ألفاً من كل قبيلة من قبائل جشم

- ليفي بروفنسال: مجموع الرسائل الموحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية لليفي بروفنسال، الجزء 01، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، 1941، ص112-113.

(26) أقام عبد المؤمن وخلفاءه على أرض خلافته المترامية الأطراف سلسلة من القلاع والحصون، وذلك لأحكام السيطرة على مناطقه، ومراقبة القبائل خشية عصيانها وتمردها وقد انتشرت من مراكش في الجنوب حتى مدينة فاس في الشمال ومن تلمسان الشرق إلى طنجة في الغرب

(27) لما تولى عبد المؤمن شؤون الخلافة الموحدية التزم بسياسة ابن تومرت في الاكتفاء بالمصادر التي حددها الشرع، حتى سنة 555هـ-1160 لجأ إلى فرض الخراج على أرض المغرب وبقية المناطق التابعة للدولة وذلك من أجل مواصلة أعمال الجهاد، وما تحتاجه هذه الأقاليم من حماية ورعاية لمزيد من التفاصيل ينظر:

- عنان محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1964 ص620-624.
- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي للنشر، مصر، 1980، ص194-218.

(28) كانت هذه المراكز العسكرية الدائمة تضم عادة ثكنات لإسكان الجند وهي تختلف بحسب القيمة التعبوية والاستراتيجية للمدينة التي ترتبط الثكنة بها هذا إلى جانت الإصطبلات ومستودعات من المخازن التي تحفظ التجهيزات من أسلحة وطعام كما تحتوي هذه المراكز على ديوان وهو عبارة عن سجل خاص يضبط أسماء الجند وعددهم وأعطياتهم ويشرف عليها كاتب مختص.

لمزيد من الاطلاع أنظر: فتحي زغروت، الجيوش الإسلامية وحركة التغير في دولتي المرابطين والموحدين، المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة 2005، ص147-155.

(29) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 84-85.

(30) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص85-86.

(31) من بين المهندسين الذي مازال التاريخ يذكرهم ويذكر إبداعاتهم ولمساتهم الرائعة أمثال: المهندس الشهير أحمد بن باسه الإشبيلي، والمهندس المغربي علي الغماري، والمهندس ابن جبير والمهندس الحاج يعيش المالقي، لمزيد من الاطلاع ينظر:

- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد السادس، مطابع فضالة، المحمدية، 1987، ص68-74.

(32) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 216-217.

- ليوبولدو بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي، نشر منشأة المعارف الإسكندرية 1979، ص 89-90، أنظر كذلك: مالكاجان بيير، الرباط بين الأسس واليوم، مراجعة عبد العزيز بنعبد الله مرسم الرباط، 2002، ص 101-102.

(33) عبد العزيز بنعبد الله، رباط الفتح بين عاصمة شالة وعاصمة القصبة، منشورات جمعية رباط الفتح، 1990، ص 40-41.

Benstimane J.H Salé etudearchitecturele de trois maissions traditionnelles Rabat, 1979, P80.

(34) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى الجزء الثالث، عصر دولة الموحدين، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993، ص117.

(35) المرجع نفسه، ص 123-126.

Allain (CH) et Deverdin(G) : les portes anciennes de Marrakech, DsHesp, T.X.L.U 1957, P119.

(36) منير أقصبي: العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، مطابع إفريقيا الشرق الدار البيضاء، 2016، ص203.

- Marçais (G): L'Art de l'islam. Paris 1950, P220.

(37) منير أقصبي: المرجع السابق، ص203-204.

- ابن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص372-374.